مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 500-524

الشيخ الدكتور محمود باي
وجهوده الإصلاحية والتربوية في منطقة وادي سوف

Sheikh Dr. Mahmoud Bey and his reform and educational efforts in Wadi Suf

نور الدين مهري*
جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي- الجزائر
البريد الالكتروني المهني: noureddine-mehri@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/12/24	2022/02/27	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث الى الكشف عن جهود أحد المصلحين في منطقة وادي سوف، وهو العالم الزاهد الرباني الشيخ الدكتور محمود باي -رحمه الله- والذي أثّر في منطقته أثرا كبيرا بما بذله من جهود في المجال التربوي والعلمي والإصلاحي، وبما قدّمه للناس من نصائح وتوجيهات، وبما خلّفه من ذكر حسن وآثار إيجابية في محيطه، فقد كان له نشاط دؤوب في الإصلاح التربوي والاجتماعي، فكان ينشر العلم والوعي عبر دروسه وخطبه ونشاطاته المختلفة في المساجد وخارجها، فلم تكن حياته المباركة سوى مدرسة مفتوحة للجميع، ينال خيرَها من مرّ بها مرورا سريعا، فكيف بمن انضمّ إليها وانتظم في صفوفها وعايش أغلب مراحلها؟!

ويتناول الموضوع حديثا عن هذا العالم المصلح بوصف شخصيته وعلمه وأخلاقه وإنجازاته عن طريق التحليل والكشف عن خبايا هذه الشخصية، ولهذا فإن المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج المعتمد في هذا البحث وهو الذي يمكّننا من وصف مزايا هذا الرجل وصفاته وتحليلها، كي تكون قدوة للجيل الحالي وللأجيال القادمة.

الكلمات المفتاحية: *محمود؛ باي؛ وادي؛ سوف*

Abstract: This article aims to reveal the efforts of Sheikh Dr. Mahmoud Bey, who made great efforts in the educational, scientific and reform fields. He was spreading knowledge and awareness through his lessons, sermons, and various activities in mosques and outside. His blessed life was nothing but a school open to all, whose goodness is

* **المؤلف المرسل**

gained by those who pass through it quickly. So, how about someone who joined it and joined its ranks and lived through most of its stages?

The topic deals with this reformer scientist by describing his personality, knowledge, morals and achievements by analyzing and revealing the secrets of this personality. Therefore, the descriptive analytical method is the method adopted in this research, which enables us to describe the merits of this man, in order to be a role model for this generation and for future generations.

Keywords: *Mahmoud; Bey; Wadi; Souf*

مقدمة:

هذا المقال موجه إلى العدد الخاص بعيد العلم ويتناول حياة أحد أعلام الجزائر الذين كرّسوا حياتهم من أجل الإصلاح التربوي والاجتماعي بمنطقة وادي سوف، وهو الشيخ الدكتور محمود باي – رحمه الله- وقد يسّر الله له أن يقوم بهذا العمل الجليل في فترة الثمانينات وما بعدها حيث كان له نشاط دؤوب في الإصلاح التربوي والاجتماعي، فكان ينشر العلم والوعي عبر دروسه وخطبه ونشاطاته المختلفة في المساجد، وكلماته التوجيهية التي تُلقى في مناسبات معينة، أشهرها عقود الزواج وحفلاته الليلية.

ولم تكن حياته المباركة سوى مدرسة مفتوحة للجميع، ينال خيرَها من مرّ بها مرورا سريعا، فكيف بمن انضمّ إليها وانتظم في صفوفها تلميذا، وعايش أغلب مراحلها؟!

وسنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: من هو الشيخ محمود باي؟ وما هي مراحل حياته التعليمية والوظيفية؟ وما هو دوره في الإصلاح التربوي والاجتماعي في وادي سوف؟ وما هي أبرز أخلاقه وصفاته؟ وما التغيير الإيجابي الذي أحدثه؟ والأثر الذي تركه في المنطقة؟

وتتلخص أهداف هذا البحث في كشف اللثام عن هذا العالم الرباني والمربي المصلح، وتعريف الناس بحياته وإنجازاته وأثره الطيب الذي خلّفه بعده، وإلى وضع قدوة صالحة أمام الناس، كي يقتدي به من لم يعرفه ولم يخالطه عن كثب كما اقتدى به من عرفوه وعايشوه.

وما دام الموضوع يتناول وصف إحدى الشخصيات ويحلل سلوكها وأعمالها، فإن المنهج المناسب لذلك هو المنهج الوصفي التحليلي الذي يمكّننا من استقصاء وصف مزايا هذا الرجل وتحليلها لتكون نموذجا صالحا للاقتداء.

1. نشأة الشيخ محمود باي ومساره العلمي والوظيفي:

سنتحدث في هذا الإطار عن ميلاد الشيخ ونشأته العلمية، وعن اشتغاله بالتعليم في المرحلة المتوسطة، وعن دراسته في جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، وعن تدريسه للشريعة الإسلامية في ثانوية بوشوشة بالوادي، وعن دراساته العليا وتتويجه بشهادة الدكتوراه، وعن أستاذيته بمعهد الشريعة بجامعة الوادي:

1.1 ميلاده ونشأته العلمية:

هو محمود بن مصطفى باي، ولد يوم 27 شعبان 1375هـ، الموافق لـ 8 أفريل 1956م بوادي سوف، وحفظ القرآن الكريم كاملا سنة 1966م، ولم يلتحق بالتعليم الابتدائي بسبب ظروف اجتماعية، ولكنه التحق بالمعهد الإسلامي التابع لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية سنة 1969م بعد أن نال حظا من العلوم العربية والإسلامية على يد العالم الزيتوني الشيخ مبروك عواج الشامسي في مدرسته الحرة.

وكان يقوم بمهمة التدريس في هذا المعهد كوكبة من الأساتذة أغلبهم شيوخ من خريجي الجامع الأزهر بمصر، فتشرّب الشيخ من تلك الينابيع الثرّة، وحصل على شهادة الأهلية للتعليم الأصلي سنة 1973م، وكان ترتيبه الأول بين زملائه، ثم تحصل على شهادة البكالوريا سنة 1976م.

2.1 اشتغاله بالتعليم في المرحلة المتوسطة:

نظرا للوضعية المعيشية الصعبة التي كان يعيشها سكان المنطقة في ذلك الوقت، فإن أغلب العائلات كانت تنتظر بشغف شديد أن يبلغ ابن من أبنائها على الأقل سن العمل كي يخفف عنها عناء الخصاصة التي كانت تعانيها، وكان أغلب الشباب يدركون ذلك

ويحسّون بالمسؤولية تجاه عائلاتهم، فما إن يأنس الشاب من نفسه قوة حتى يباشر العمل كي يساهم في إعالة أسرته، أو ما إن يصل إلى مستوى البكالوريا حتى ينخرط في المعهد التكنولوجي ليلتحق بالوظيفة معلما أو أستاذا، وهذا ما حصل مع الشيخ تماما، فقد دُفع إلى الاكتفاء بذلك المستوى التعليمي لينخرط في سلك التعليم المتوسط أستاذا في مادة اللغة العربية ابتداء من سنة 1977م بمتوسطة لمغيّر ولاية الوادي، وبعد سنة واحدة من تنصيبه التحق بالخدمة الوطنية بمدينة القليعة، ثم عاد مدرّسا للغة العربية بمتوسطة كوينين بالوادي (رحماني، 2021، الصفحات 19-22)، واستمر في التعليم المتوسط إلى أن تحصل على الانتداب لمواصلة دراسته الجامعية سنة 1984م، فالتحق بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية لمواصلة دراسته.

3.1 الشيخ في جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية:

التحق الشيخ بجامعة الأمير عبد القادر سنة 1985م، وقد بقي طالبا في هذه الجامعة إلى نهاية الموسم الدراسي 1988م- 1989م، وكانت الجامعة يومها تعجّ بالأعلام العلماء من مختلف أقطار العالم الإسلامي، فاستطاع الشيخ أن يحصّل زادا معرفيا معتبرا من كبار الشيوخ، وكان متأثرا كثيرا في علمه وسمته وخطابه بأستاذه فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى. (رحماني، 2021، صفحة 23).

وكان الشيخ مهيبا بين الطلبة، الكلّ يهابه ويقدّره وينصت إذا تكلم، وكان عزيز القدر مرفوع المكانة عند الشيخ الجليل محمد الغزالي -رحمه الله- وكيف لا وهو الذي تمثل خُطا شيخه حكمة ولسانا وأسلوبا، حتى صار يُلقب عند الكثيرين: الغزالي الصغير (عبد اللاوي، 2021، صفحة 36).

وكان متفوقا على زملائه بينه وبينهم في العلم مراحل، وكان يحفظ كل الدروس ويحل كل الواجبات، بل ويحفظ عددا من الكتب ككتاب قطر الندى وبل الصدى في النحو والصرف مثلا (غربي، 2021، صفحة 93)، مما جعله الأول على دفعته في معهد

الشريعة، بل الأول على مستوى الجامعة، وقد تخرج منها سنة 1989م بشهادة ليسانس في العلوم الإسلامية تخصص: الفقه الإسلامي (ريمي، 2021، صفحة 101).

4.1 الشيخ محمود أستاذا للشريعة الإسلامية في ثانوية بوشوشة:

عاد الشيخ بعد أربع سنوات قضاها في الجامعة إلى مدينة الوادي، فعُيّن أستاذا لمادة الشريعة الإسلامية بثانوية بوشوشة، وهناك قضى أكثر من عشر سنوات في التدريس، وقد شهد له كل تلامذته في جميع المستويات التي درّس فيها بأنه كان يبذل أقصى جهده في التعليم وكان لتوجيهاته المؤثرة إضافة إلى سمته المحبب ومواضع القدوة فيه أثر كبير جدا في تلامذته الذين ظلوا يحْكون عن ذلك الأستاذ الذي لم يروا مثله علما وعملا وصدقا وإخلاصا وأخلاقا وتأثيرا... (بوغزالة، 2021، الصفحات 63-66) .

وقد كنت أراه -حين زاملته في ثانوية بوشوشة- يخرج من القسم بعد نهاية الحصة في عزّ برد الشتاء ولباسه يقطر عرقا بسبب الجهد الكبير الذي كان يبذله مع العدد الكبير من الأقسام المسندة إليه، وكان أول من يأتي إلى الثانوية وآخر من ينصرف.

5.1 دراساته العليا وتتويجه بشهادة الدكتوراه:

لقد استمر الشيخ في وظيفته التربوية والتعليمية في ثانوية بوشوشة حتى عام 2000م حيث عاوده الحنين إلى مقاعد الدراسة بالجامعة، غير أن هذا الأمر يصعب تحقيقه والشيخ أستاذ بمدينة الوادي التي لم تكن تتوفر جامعتها الجديدة على معهد للعلوم الإسلامية في ذلك الوقت، وكانت جامعة باتنة التي تبعد عن الوادي أكثر من ثلاثمائة كلم هي أقرب جامعة يمكنه أن ينتمي إليها لو أراد مواصلة الدراسة، وكيف يتسنى له ذلك والأمر يتطلب غياب بضعة أيام من كل أسبوع وهو حريص على ألا يضيّع دقيقة واحدة للطلبة الذين يدرّسهم، ومنهم طلبة البكالوريا في تخصص العلوم الإسلامية، وقد سبق له أن شارك في مسابقة الماجستير ونجح فيها، ولكنه لم يتمكن من التوفيق بين الدراسة والتدريس، خصوصا والشيخ يريد أن يعطي التدريس حقه الكامل دون إخلال، ويعطي

الدراسة في الجامعة حقها كاملا كذلك، وهنا وجد الشيخ نفسه مضطرا إلى أن ينخرط في سلك الإدارة لعلها تتيح له فرصة للدراسة، فيتخفف فيها من مسؤولية القسم.

وهكذا أصبح الشيخ مديرا للتعليم المتوسط، وعيّن مديرا لإكمالية أم الطيور سنة 2000م مدة سنتين دراسيتين، وفي سنة 2002م شارك في مسابقة الماجستير بكلية العلوم الإسلامية ببانتة، ونجح فيها وانخرط في سلك طلاب الدراسات العليا، وكان مثالا يحتذى به في الانضباط والاهتمام بالتحصيل، فأكمل الشيخ العام الدراسي بنجاح مما أتاح له تسجيل مشروع رسالة الماجستير بعنوان: "مقصد حفظ العقل عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور" بإشراف أ.د. مسعود فلوسي. (رحماني، 2021، صفحة 24)

ويتحدث أ.د. مسعود فلوسي عن تلميذه الشيخ محمود الذي درّسه وأشرف على بحثيه في الماجستير وفي الدكتوراه فيقول: "التحق بمقعد الدراسة من أول يوم بكل همة وطموح وحيوية ونشاط، وقد درّسته وزملاءه عدة مقاييس، ولاحظت أنه كان مواظبا على الحضور ولا يغيب عن أي درس أو محاضرة، كما كان حريصا على تسجيل كل ما يسمع من معلومات، ولا يتردد في الاستفسار عن أي معنى يلتبس عليه، أو فكرة لم تتضح له كما ينبغي، وكان كذلك يتدخل بالمناقشة والحوار في المسائل المشكلة التي تختلف فيها الآراء والأفهام، كل ذلك بأدب جم وخلق عال، كما لاحظت أن الشيخ محمود كان يتعامل مع أساتذته الذين يقل أكثرهم عنه سنًّا بخلق الطالب مع مشايخه، باذلا لهم الاحترام، ومبْديا لهم التقدير، ومظهرا لهم الحفاوة والإكرام". (فلوسي، 2021، صفحة 13)

وقد حصل الشيخ على شهادة الماجستير في بحثه الموسوم بـــ(مقصد حفظ العقل عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور)، والذي تمت مناقشته بتاريخ: 25 جوان 2006م بتقدير مشرف جدا، ثم شرع يعدّ لبحث الدكتوراه بإشراف أ.د. مسعود فلوسي، وتم الاتفاق على موضوع: (القواعد الأصولية وتطبيقاتها الفقهية من خلال كتاب الذخيرة للإمام القرافي).

وقد تفرّغ الشيخ كليا لهذا البحث، فقدم استقالته من الوظيفة تحريا للحلال خشية التقصير في عمله، فيتقاضى أجرا فيه شبهة، أو أن تكون الوظيفة وارتباطاتها عائقا يعوقه عن البحث الذي كان يريد أن يترك له كل وقته، ويفرغ له كل باله، ويعطيه كل جهده.

وقبل الشروع في البحث كان الشيخ قد قرأ كتاب الذخيرة للإمام القرافي الذي هو مدونة بحثه والواقع في 14 مجلدا أكثر من مرة. (باي، 2021، صفحة 9)، وقد أكمل الشيخ بحثه بكل حرص وتأن غير عابئ بمرور السنوات، فهدفه ليس إنجاز بحث كيفما اتفق والحصول على الشهادة، وإنما هدفه إنجاز بحث قوي متين مفيد وقائم على أسس علمية سليمة، وقد أخذ البحث منه وقته وجهده إلى أن أتمه، ونوقش يوم 27 ماي 2014م لينال الشيخ درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص: الفقه والأصول، بتقدير مشرف جدا.

6.1 الشيخ محمود أستاذا بمعهد الشريعة بجامعة الوادي:

كان قسم العلوم الإسلامية بجامعة الوادي إدارة وطلابا يحرصون على أن يكون الشيخ من ضمن أعضاء هيئة التدريس ولو بشكل مؤقت قبل التوظيف لما يدركون من سعة علمه، وقدرته الفائقة على إفادة الطلبة، ولكن الشيخ لم يقبل ذلك متحجّجا بأنه يخشى أن يقصّر في حق الطلاب وهو مشغول ببحثه في الدكتوراه.

وبعد أن قطع شوطا مهما في بحثه، وكثر الإلحاح عليه من جهات مختلفة، قبل الشيخ أن يتعاقد مع قسم العلوم الإسلامية ابتداء من سنة 2012م حيث درّس عدة مواد في الفقه وأصوله، ووجّه عددا كبيرا من الطلاب في أبحاثهم العلمية.

وبعد مناقشته رسالة الدكتوراه التحق الشيخ بالجامعة أستاذا مساعدا بقسم الشريعة سنة 2014م، ورُقّي في السنة الموالية إلى أستاذ محاضر "ب"، ثم رقّي سنة 2017م إلى رتبة أستاذ محاضر"أ". (رحماني، 2021، الصفحات 27- 29)

2. جهوده التربوية والإصلاحية:

لقد كان الشيخ محمود نسيج وحده، قلّ أن يجود الزمان بمثله، فإذا تكلمت عن القرآن فهو فارسه، وإن قصدت البيان فهو أميره، وإن رمت الخطابة فهو أسَدها، وإن أشرت إلى الفقه ومقاصده فهو أستاذه، وإن تخيّرت الحكمة والأناة فهو صاحبها، وإن رأيت الزهد والتقشف والتقلّل من الدنيا فسترْمقه واقفا على بابها (عبد اللاوي، 2021، صفحة 35)

1.2 الانطلاقة الدعوية والإصلاحية:

يمكننا القول إن الشيخ محمود قد بدأ في عمله الإصلاحي والدعوي والتربوي في منطقة وادي سوف بعد رجوعه من الخدمة الوطنية سنة 1980م، وقد تمثلت هذه الجهود في عدد من النشاطات أثّرت تأثيرا واضحا في عقول كثير من الناس وسلوكهم.

وقد كان منطلقه من مسجد الفتح في حي المصاعبة بوادي سوف والذي ازدهر النشاط فيه في عهد الشيخ ازدهارا كبيرا، بحيث صار هو المسجد المركزي في مدينة الوادي، فلم ينل أيّ مسجد ما ناله مسجد الفتح من شهرة وإقبال، فكان كخلية النّحل حركة ونشاطا، فمِن حلقات العلم، إلى الندوات، إلى الدورات، إلى درس الجمعة وخطبتها، إلى درس الجمعة بين المغرب والعشاء، إلى التعليم القرآني...

وقد كان التفاعل مع هذه النشاطات المختلفة على أشده، مما أسهم في نجاحها وشهرتها، فأقبل الناس عليها، وبدأت كثير من المظاهر السيئة في الاختفاء بفعل تأثر الناس بما كان يقدَّم من وعظ وإرشاد ساهم في إحياء النفوس، وتعميق خوف الله تعالى في القلوب (مهري، 2017، صفحة 40)، وتحوّل مسجد الفتح من مسجد يخاطب أهل حي المصاعبة وبعض أهل حي الأعشاش القريب إلى منبر يخاطب أهل بلدية الوادي، فــقد كان الشباب هم أكثر من يحضُر خطب الشيخ ودروسَه، وكانوا يتوافدون على مسجد الفتح من كل حيّ من أحياء البلدية، بل من عدد من بلديات الولاية. (مهري، 2020، صفحة 33)

2.2 نشاطاته في مسجد الفتح:

1.2.2 الحضور الدائم بالمسجد والمساهمة في أنشطته المختلفة:

كان مسجد الفتح بحي المصاعبة بالوادي قبل التحاق الشيخ به ببضع سنوات على موعد مع عدد من شباب الحي الذين انطلقوا في بعض الأعمال، فأسسوا حلقة أسبوعية ومكتبة بسيطة ومجلة حائطية، وكان عملهم محدودا لا يكاد يتجاوزهم، فلما بدأ الشيخ نشاطه سنة1981م ازدهر المسجد بحيث صار هو المسجد المركزي في مدينة الوادي، فلم ينل أيّ مسجد ما ناله مسجد الفتح من شهرة وإقبال، وكان كخلية النّحل حركة ونشاطا.

ولم يكن الشيخ محمود يكتفي بالوجود في المسجد يوم الجمعة ليلقي الخطبة ثم يغادر إلى الجمعة القادمة، بل كان في سنواته الأولى دائمَ التواجد بالمسجد؛ فقد كان يحضُر في كل الصلوات على الرغم من أنّ سكنه كان بعيدا عن المسجد.

وقد أمضى الشيخ فترة يؤمُّ الناس في كل الصلوات، وكان وجوده الدائم مهمًّا جدا في تلك الفتـــرة، حيث ساهم في استقرار المسجد، وكان يقدّم درس الجمعة، ثم يلقي الخطبة فيطيلها ما وسعته الإطالة، وبين المغرب والعشاء يقدم درسا آخر، هذا عدا عن قيامه بصلاة التراويح، ومساهمته في حلقات المسجد حضورا وتعقيبا وتوجيها أو إلقاء، ومساهمته في إلقاء بعض الدورات والندوات ودروس الإفتاء...

2.2.2 الشيخ فارس المنابر وباعث فن الخطابة في المنطقة:

لقد كان الشيخ محمود خطيبا فريدا ومميّزا، بل كان بحق رائد الخطابة الدينية في وادي سوف في هذا العصر، فحين اعتلى منبر مسجد الفتح مطلع الثّمانينات من القرن الماضي، رأى الناس منهجا في الخطابة لا عهد لهم به إلا من خلال الأشرطة السّمعية التي كانت تفِد إليهم من المشرق العربي لعدد من أبرز الخطباء هناك ممن كان لهم صيتٌ كبير وتأثير قوي بما أوتوا من الفصاحة والبيان، وبما أُعطوا من القدرة على الارتجال ومخاطبة الناس والتأثير فيهم.

وأما خطباؤنا في ذلك الوقت فإن أغلبُهم كان يُلقي خُطبَه بطريقة آلية روتينيّة، وكأنّ المطلوب من الخطيب أن يقدّم للناس طقوسا دينية معينة، لا أن يقدّم لهم مادة مشوّقة تنفذ إلى قلوبهم وعقولهم، وتحرّك وجدانهم، وتغيّر من أنفسهم ومن واقعهم.

وماذا ننتظر من خطيب لا يعرف من قواعد اللغة العربية إلا قليلا، ولا يعرف من العلوم الإسلامية إلا النّزر اليسير، ولا يدرك معنى الأمانة الموكلة إليه ولا قيمتها، ولا يكاد يميز بين ما ينبغي قوله وما لا ينبغي، فمن هؤلاء الخطباء من كان يقرأ على الناس خُطبا يجدُها في بعض الكتب التي أُلّفت منذ قرون، وقد تناولتْ في ثناياها أحداثا حصلت في الزمن الذي قيلت فيه الخطبة، وربما ذكَرت أسماء أشخاص عاشوا في ذلك الزمن، وارتبطت بهم تلك الأحداث، أو تحدّثت عن دول لم يعد لها وجود، ولكنّ الخطيب كان يقرأ كل ذلك دون تمييز، وكأنه يتحدث عن أحداث حصلت في ذلك الأسبوع.

فلما ارتقى الشيخ محمود منبر مسجد الفتح، سمعنا منه خطابا جديدا، وطريقة في الأداء تختلف عن خطب شيوخنا، فقد كان الشيخ يُلقي خُطبَه ارتجالا، دون أن يعتمد على ورقة يقرأها، ولم يكن هذا أمرا معروفا عندنا، فقد عهِدنا خطباءَنا لا يستغني أحدهم عن أوراق يقلّبها في يديه، ولا يرفع بصره عنها طوال خطبته إلا قليلا.

وقد رُزق الشيخ محمود فصاحة وبيانا وقوة حجّة لم تكن معروفة لدى أئمة ذلك العهد، فصار مسجد الفتح محجّة للناس، يقصدونه من مختلف أحياء بلدية الوادي، بل من البلديات الأخرى أيضا.

ومما كان يشدّ المصلّين إلى الشيخ فصاحةُ لسانه، وحسنُ اختياره المواضيع التي تناسب الوقت، وما آتاه الله من قدرة فائقة على الخطابة وحسن الإلقاء، وعدم اعتماده على شيء مكتوب، فقد كان يلقي خطبه ارتجالا، وهذه الطريقة حين يحسنها صاحبها، فإنها تجعل السّامع يثق في الملقي ثقة كبيرة، ويتأثر بقوة بكل ما يقول.

وقد كان الشيخ يجول بنا في خطَبه في مواضيع بعضها يعالج الواقع، وبعضها يصحّح الفهم، وبعضها يحارب العادات والتقاليد السيّئة والبدع المنتشرة، وبعضها يربط الناس بكتاب الله وسنة نبيه، وبعضها متابعة للأحداث والتعليق عليها، وبعضها وعظ وإرشاد.

وكان -رحمه الله- يرصد الواقع، ويتابع بعض السلبيات التي انتشرت في المجتمع، ويعمل على معالجتها في خطبه، ومن ذلك ما يحدث من منكرات تصاحب حفلات الزواج كالتبذير والإسراف والغناء الفاحش وشرب الخمور... وكم كان يركّز في هذا المجال على تعريف كلٍّ من الزوجين بحقوقهما الزوجية التي أقرها الإسلام، كما كان يدعو الشباب إلى الأخذ بالعلم حتى يساهموا في ترقية أمتهم إلى مصاف الدول المتقدمة.

وكان يدعوهم كذلك إلى أن يكونوا مخلصين في عملهم، لا مضيّعين لأوقاتهم في أمور تافهة، وكان حريصا على دعوتهم إلى حمل هموم أمتهم، وإلى أن يكونوا إيجابيين لا سلبيين وجادّين لا عابثين.

وهكذا، فــقد حدث تحوُّل كبير في الخطابة بين عهدين: عهد كان فيه المنبر يعاني قصورا كبيرا جدا شكلا ومضمونا، وعهد آخر مختلف تماما، حيث عاد المنبر إلى أداء دوره الحقيقي في إحياء القلوب، وإيقاظ النفوس، وشحنها بالإيجابية، ومحاربة البدع والخرافات، وتوعية الناس بالمخاطر التي تتهدد الإسلام والمسلمين، بعد أن كانت أغلب المواضيع التي تُلقى فيه جامدة، لا تحرك النفوس، ولا تستفز القلوب إلى الإحساس بأهمية العمل لهذا الدين، وضرورة السعي من أجل إخراج هذه الأمة من الوهدة العميقة التي تردّت فيها، ومن الهزائم المتتالية والمتنوعة التي مُنيت بها، وعدم دعوة الناس إلى ترك البدع والخرافات الغريبة عن الدين التي شوهته وكادت أن تقضي عليه. (مهري، 2021، صفحة 56)

3.2.2 الدروس والحلقات والدورات:

لقد كان أول نشاط الشيخ في مسجد الفتح هو إلقاء درس أسبوعي يوم الجمعة بين المغرب والعشاء كان يلقيه بالتداول مع الشيخ عبد الكريم بلقط، ثم أضاف إليه درسا آخر قبل صلاة الجمعة، ثم صار يلقي خطبة الجمعة، فكان يجتمع له في يوم الجمعة درسان والخطبة.

وكان الشيخ يساهم في الحلقة الأسبوعية في المسجد حضورا وتقديما وتشجيعا وتعليقا وتوجيها وإفادة، وكانت هذه الحلقة قبل مجيء الشيخ تجتمع في جزء قصيّ من المسجد يرتادها بعض الشباب، فجعلها الشيخ وسط المسجد، وصار يحضرها عدد كثير من الناس.

وأما الدّورات والتي هي دروس علمية مكثفة مركّزة في علم من العلوم، يتم إلقاؤها بشكل يومي بين المغرب والعشاء لمدة 15 يوما متتالية أو أكثر على حسب مادة العلم المقدّم، وقد تُلقى أحيانا بعد صلاة العصر في فصل الصيف، ولكن أغلب الدورات كانت تتم بين المغرب والعشاء لأنه وقت يناسب أغلب الناس.

وقد ألقى الشيخ دورة في أحكام الترتيل على رواية ورش من طريق الأزرق، ودورة أخرى في السيرة النبوية، استقصى فيها أحداث السيرة وما تتضمنه من عبر وعظات، وأعقبها بامتحان حاول أن تكون أسئلته دقيقة وشاملة، كما ألقى دورة ثالثة بين المغرب والعشاء في أصول الفقه المالكي، استمرت عشرين يوما متتالية، وكان مستوى الإلقاء عاليا جدا، فلم يستطع الكثيرون متابعة الشيخ والاستفادة من الدورة، ولكنهم كانوا يحضرون باستمرار.

ومن عجيب ما حصل في هذه الدورة، وهو أكبر دليل على جديّة الشيخ ومثابرته، وقوة عزيمته، وشدة صبره، وحرصه على مواصلة ما بدأ من عمل وعدم إيقافه مهما كان السبب.

أقول: من أكبر الأدلة على ذلك: أن والدة الشيخ توفيت وهو في منتصف هذه الدورة، ورأينا الحزن باديا على محيّا الشيخ المفجوع بوفاة والدته، ولكنه كان يتحلى بالصبر الجميل.

وبعد عصر ذلك اليوم تم دفن الوالدة، ثم وقف يتلقى التعازي من الحاضرين، وكانوا كثيرين، حتى شارف الوقت على الغروب، فانطلق الشيخ إلى مسجد الفتح لصلاة المغرب.

وكنا نظن أن الشيخ له عذر يمنعه من إلقاء درسه في ذلك اليوم، وربما سيقطع الدورة لعدة أيام، وهو معذور لو فعل، ولكن المفاجأة التي فاجأنا بها، أننا رأيناه بعد صلاة المغرب واقفا عند السبورة، عازما على مواصلة دروسه في أصول الفقه المالكي، فأكبرنا فيه هذه العزيمة، وحضرنا درسه الذي ألقاه كما كان يلقي درسه في كل يوم، لولا مسحة من حزن كنا نلاحظها على وجهه، يجاهد في إخفائها، وتأبى أن تعلن عن نفسها. (مهري، 2017، صفحة 37).

3.2 نشاطه خارج مسجد الفتح:

1.3.2 الشيخ كالغيث أينما حل نفع:

لقد كان الشيخ كالغيث أينما حل نفع، فكان ينشر الخير في كل مكان يحل فيه بمنطقه إن أتيح له الكلام، وبعمله إن واتته فرصة العمل، وبالقدوة الصالحة والأخلاق الرفيعة والسمت الهادئ الهادي حين لا يتاح له مجال للكلام أو العمل، فلقد كان الشيخ ذا أخلاق عالية، وهو يحاول أن يتمثّل كل أخلاق الإسلام، ويقتدي بالنبي ﷺ قدر استطاعته.

ولهذا فقد كان الشيخ موقّرا ومبجّلا ومسموع الكلمة سواء من تلامذته أم من أصدقائه ومحبيه، بل حتى من بعض العصاة؛ فقد حدثني بعضهم: أن شخصا كان يعتاد شرب الخمر، وكان يلتقي الشيخ في الطريق أحيانا وهو في حالة سكر، وحين تاب الله على هذا

الشخص، حكى قائلا: "كنت حين ألتقي بالشيخ في الطريق وأنا سكران، تذهب عني سكرتي، وأصحو وكأنني لم أشرب خمرا".

وقد غادر الشيخ منبره في مسجد الفتح حين عيّنت مديرية الشؤون الدينية إماما موظفا للمسجد بعد أن كان الشيخ يخطب فيه متطوعا أكثر من عشر سنوات، ولكنه لم ينقطع عن نشاطه الذي تواصل في مساجد أخرى وأماكن أخرى، فكان يلقي كلمات في عقود الزواج وفي حفلاته الليلية بالإضافة إلى عمله الرسمي كأستاذ للغة العربية في سنواته الأولى من عمله حين كان أستاذا في التعليم المتوسط لمدة عشر سنوات، أو كأستاذ للعلوم الإسلامية في المستوى الثانوي والتي قضى فيها عشر سنوات أيضا، وكذلك بالجامعة إلى أن توفاه الله، ومجال التعليم مجال خصب للدعوة والإصلاح والتربية.

2.3.2 نشاطه في مسجد معاذ بن جبل بحي أول نوفمبر:

انتقل إلى مسكنه الجديد بحي أول نوفمبر بمدينة الوادي، وهناك في مسجد الحي مسجد معاذ بن جبل كان الشيخ يقدم خطبة الجمعة، وكانت له حلقة أسبوعية في تفسير القرآن الكريم ظل يشرف عليها لسنوات، وقد استقطبت عددا كبيرا من الناس سواء من أهل الحي أم من خارجه ممن كانوا يقصدونها من مناطق بعيدة، وقد ذكر الأستاذ حذيفة باي ابن الشيخ هذه القصة التي تدل على جديّته وهمته العالية وحرصه على عدم التخلف عن هذه الحلقة فقال: "وقد تزامنت إحدى حلقاته مع موعد مناقشته لرسالة الماجستير في مدينة باتنة، فحرص الشيخ على العودة من باتنة إلى الوادي (أكثر من 300 كلم) قبل المغرب حتى لا يغيب عن درس التفسير، ولما قيل له: أنت معذور، قال: هناك من يأتي من مكان بعيد لحضور الدرس، وأنا لم أخبرهم في الأسبوع الماضي بغيابي". (باي، 2021، صفحة 7).

3.3.2 نشاطه في مسجد قرية (امّيهْ باهي):

في السنوات الأخيرة من حياة الشيخ العامرة، شدّه الحنين إلى قريته التي قضى فيها صباه، وهي قرية (امّيهْ باهي) التي تبعد عن بلدية الوادي بـــ 5 كلم تقريبا، وهي قرية قديمة بها عدد محدود جدا من السكان، وكان لوالده بستان نخيل هناك، فكان الشيخ يختلي فيه في سنواته الأخيرة للتأمل والبحث، وكان يشغل بعض وقته بالزراعة وتربية الماشية.

ومن شدة حب الشيخ لهذه القرية وإصراره على عدم مغادرتها أنه حين عُرض عليه منصب المراقب الشرعي في بنك السلام وهو منصب له مردود مادي يُسيل اللعاب، ولكن الشيخ قال: "كان مدير البنك يحدثني عن العمل في البنك بالعاصمة، وأنا أحدّث نفسي هل أجد في العاصمة (امِّيهْ باهي)؟!"

وكان بهذه القرية مسجد قديم ضيق أعاد الشيخ إليه الحركة والنشاط من جديد حيث أنشأ حلقة للقرآن بعد صلاة المغرب لأهل الحي، وكان يصلّي بهم التراويح في شهر رمضان، ثم شرع يخطب الجمعة هناك وكان المسجد صغيرا، فما إن سمع الناس بذلك حتى توافد كثير منهم للصلاة خلف الشيخ والتمتع بخطبته، وكان كثير منهم يصلّون خارج المسجد، وقد بلغني أن هناك من بدأ التفكير في توسعة المسجد، ولكن قضاء الله تعالى كان أسبق، فتوفي الشيخ وترك أهلَ ذلك المسجد أيتاما، فنسأل الله أن يعوضهم خيرا.

4.3.2 الشيخ مقصد الناس في الفتوى:

كان الشيخ مقصد الناس في الفتوى يستفتونه فيما يعنُّ لهم من قضايا، وكان الشيخ -من شدة ورعه- يحاول أن يحيل الفتوى لغيره من علماء المنطقة كالشيخ عبد الكريم بلقط والشيخ أحمد بن موسى وغيرهما، فإذا لم يتيسر له ذلك، أفتى هو بكل تواضع.

وقد كانت للشيخ في أواخر الثمانينيات حصة أسبوعية للفتوى في مسجد الفتح بين المغرب والعشاء، يحضرها كثير من الناس للاستفادة، ومن كان له منهم سؤال مستعجل، طرحه مباشرة في الحصّة، وإلا فإن هناك صندوقا للأسئلة كان موضوعا في المسجد

يمكن لكل سائل أن يضع فيه سؤاله متى شاء، وكان الشيخ يستقبل تلك الأسئلة ويجيب عنها في الحصة المقررة.

وقد كشفت حصص الفتوى عن مدى ما تمتع به الشيخ من علم غزير، فقد كان يقضي أحيانا الحصة كلها في الإجابة عن سؤال واحد، يدْرسه من جميع جوانبه، وكان مقنعا في إجابته، مما يدل على سعة علمه، وقوة حجته.

وقد سمعته مرات عديدة يجيب سائلا يسأله في موضوع ما، وقد يكون الموضوع شائكا، فإذا بالشيخ يطرِق قليلا، ثم يرفع رأسه، وعلى ثغره ابتسامة محبّبة، ثم يقول: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدﷺ، ثم يشرع في الإجابة، فيقدّم لها بمقدمة مناسبة، ثم يحلل الموضوع ويفصّله، ويعرض أقوال العلماء، ويقول مثلا: هذا الموضوع فيه أربعة أقوال أو خمسة أو أكثر... ثم يسردها تباعا، ناسبا كل قول إلى صاحبه أو إلى مذهبه في دقة عجيبة، وكأنه يقرأ من كتاب أمامه، أو أنه قضى وقتا طويلا في تحضير هذه الإجابة بعناية بالغة، ولن يستطيع هذا إلا رجل آتاه الله ذاكرة قوية، يحفظ بها أقوال العلماء ويخزّنها، ليخرجها وقت الحاجة، وذكاء حادا، يربط به أجزاء الموضوع، وبديهة سريعة تسعفه أبدا كلما احتاج إليها. (مهري، 2017، صفحة 84).

3. أخلاقه وصفاته التي جعلته رجلا متميزا:

ما الذي جعل الشيخ محمود رجلا متميزا، بل ما الذي جعله شيخا ذا قدوة، وداعية مسموع الكلمة، ومربيا ناجحا، وربانيا من طينة الكبار استحقّ أن أقول فيه وأنا أؤبّنه يوم جنازته عبارة أعجبت ذلك الجمع الضخم المهيب المشهود الذي حضر لتشييع الشيخ وتوديعه: "إن الشيخ محمود باي هو رجل من السلف الأوّل دفعته القرون إلينا"؟!.

وإن ما جعله كذلك هو استعداده الفطري وأخلاقه العالية وصفاته الكريمة، فلقد كان الشيخ مزوّدا فطريا لِكيْ يكون ذا مستوى عالٍ، بما آتاه الله من قدرات تمكّنه من أن يؤدّي دورا كبيرا في الحياة، فقد وهبه الله الذاكرة القوية، والذكاء الحاد، والجدية في العمل،

والمثابرة فيه، والصبر والتحمل، وغيرها من القدرات التي تؤهله إلى بلوغ مستوى القيادة، وهذا الاستعداد الفطري يسّر الله له الأسباب التي استوعبته وطورته، فأخرجت هذا الرجل المميز إلى الوجود.

وأما أخلاقه العالية، فلقد كان الشيخ يحاول أن يتمثّل كل أخلاق الإسلام، ويقتدي بالنبي ﷺ قدر استطاعته، لأنه يعلم أن الأخلاق هي الدين، كما قال ابن القيم: "الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق، زاد عليك في الدين" (الجوزية، 1973م، 2 /307)

واصطباغ الشخص بالأخلاق الرفيعة يجعله مميزا عند الناس، وقبل ذلك عند رب الناس، فقد روى عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقا" (البخاري، 1987م، 3 / 1305)، فالتحلي بالأخلاق الفاضلة هو ما يرتقي بالشخص إلى أعلى الدرجات، وهكذا كان الشيخ -رحمه الله-.

والناظر في سيرته يجد أنه قد جمع من الأخلاق والصفات الحسنة الكثير... فقد كان يتمتع بهيبة ووقار جعلاه يتمكن بسهولة من التأثير في الناس، فإذا هم مذعنون لنصائحه وتوجيهاته.

وكان من صفاته عدم التركيز عن الأخطاء والزلاّت والهفوات الصغيرة، وهو خُلُق من أخلاق الصالحين، لا يقدر عليه إلا من وفقه الله، بحيث إذا رأى من أحد زلّة، أظهر أنه لم يرها لئلا يعرّض صاحبها للوحشة، وكي يريحه من تحمّل العذر (الجوزية، 1973م، 344/2).

وقد كان الشيخ حسن الظنّ بالناس، وكان يلتمس لهم الأعذار ما وسعه ذلك، وحين يُذكر شخص بسوء في حضوره، تراه يحاول التماس العذر له، لعله يجد له مخرجا، وهو في ذلك يحرص على أن يكون سليم الصدر، وأن يبتعد عن الشكوك والأوهام وسوء الظن بالآخرين، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن ليدَع أحدا يمرر منكرا أو فسادا من خلاله،

فالمؤمن كيّس فطن، يجمع بين حسن الظن والحذر مما يضره، كما قال عمر ﷺ: "لست بخبٍ ولا الخبّ يخدعني" (ابن عبد ربه، 1404هـ، 43/1).

وكان طيب المعشر، يعاشر الناس معاشرة حسنة، بمختلف مستوياتهم، ويعطي كل مستوى حقه، وينجح في الحوار مع كل صنف من الناس، فكما تراه تارة يحدّث الأطفال الصغار ويمرح معهم، تراه كذلك يحدّث الشباب بما يناسب مستواهم، وتراه تارة أخرى يحدث العامة أو كبار السن بما يناسب سنّهم واهتمامهم، ثم تجده مرة أخرى يتحدث مع أناس ذوي مستويات عالية في السياسة أو الاقتصاد أو غيرها، وطورا آخر تجده في مدرّج الجامعة يعطي طلبته مما فتح الله عليه من علمه الغزير.

وقد كان الشيخ زاهدا ورعا وعازفا عن مغريات الدنيا، ولو كان ممن يسعون إليها، لكان له منها نصيب كبير، فقد استطاع من هو دونه بكثير أن ينال منها الكثير، فكيف به هو؟! ولكنه عزف عن ذلك كله، وكان يأكل مما تدر عليه وظيفته من مال، وأما أعمال الدعوة بما في ذلك الخطابة والإمامة، فقد كان يؤديها تطوّعا وحسبة لله تعالى.

ولم تكن ترى الشيخ –على الرغم مما أعطاه الله من علم ومن مكانة- معتدّا بنفسه، بل لا تحسّ ذلك منه أبدا، لأنه لم يكن يرى نفسه شيئا، وكثيرا ما يردد حين يرى التفات الناس إليه وإعجابهم به: (من أنا حتى يقال لي كذا؟!)، ولذلك فقد كان يحبّ الابتعاد عن الأضواء، والخلود إلى الظل، ولم يكن يحب تصدّر المجالس إلا أنه كثيرا ما يُجبر على ذلك.

ولقد كان للشيخ حظ وافر من صفة الصدق، فهو صادق مع نفسه ومع الناس، وصادق قبل ذلك مع ربه، فلم يكن للشيخ وجهان، وإنما هو وجه واحد، يعرفه الناس به عند الوعظ والنصح والإرشاد، وهو ذاته الذي يعرفه به جلساؤه وأصدقاؤه، وهو هو الذي يعرفه به آل بيته حين يكون بينهم، ومن الأمثلة الدالة على صدقه إتقانه العمل، فقد كان يؤدّي وظيفته على أحسن وجه حين كان أستاذا أو مديرا، ويشهد له بذلك كل من زاملوه، وتكفيه

شهادة الشيخ الجنيدي منصوري مدير ثانوية بوشوشة سابقا الذي شهد له يوم اللقاء التأبيني للشيخ الذي عُقد بجامعة الوادي يوم 6 جوان 2017م بأنه كان منضبطا في عمله، لا يتغيّب ولا يتأخر في حضوره أو في أداء واجباته، أوفي تسليم نقاط الطلبة إلى الإدارة قبل موعدها النهائي على الرغم من كثرة عدد الأقسام الموكلة إليه، وقد كان هو أول من يحضر إلى الثانوية في الغالب وآخر من ينصرف، وكل الأساتذة الذين عملوا معه -وأنا واحد منهم- والطلبة الذين درّسهم يشهدون للشيخ بالتّفاني في العمل، فلم يكن الشيخ يتصور يوما أنه موظف، بل كان يعدّ نفسه رساليّا يؤدي رسالة شريفة، تستحق أن يبذل من أجلها الكثير، وأن يتعب ويشقى في سبيلها، وهذا سرّ نجاحه -رحمه الله-.

ومن أهم صفاته صفة الصبر والتحمل وسعة الصدر، وكل من عايشوه يدركون كم أعطى الله تعالى هذا الرجل من عطاء الصبر وسعة الصدر، وما أعظمه من عطاء، فعن عن أبي سعيد الخـــدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "ما أُعطِي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر" (البخاري، 1987م، 2 / 534).

وقد عاينتُ صبر الشيخ وسعة صدره في مواضع كثيرة؛ فقد ذكرتُ سابقا أنه لم يتوقف عن إلقاء دورة أصول الفقه في مسجد الفتح يوم وفاة والدته، فقد دفنها بعد صلاة العصر، وبعد المغرب وقف عند السبورة يلقي درسه، على الرغم من مصابه الشديد، وكان يعلمنا أن الجزع لا يعوّض عن المصيبة، بل إن الجزع هو مصيبة أخرى، وكأن الشخص الذي تنزل به مصيبة إذا ما جزع منها صارت لديه مصيبتان، مصيبته الأولى ومصيبة الجزع.

ومما تميز به الشيخ عن غيره أنه كان لا يتحدث إلا باللغة العربية الفصحى، وهو هنا يخالف أغلب العلماء الذين يفضّلون الكلام -خارج التدريس أو الخطابة أو بعض الرسميات- باللهجة المحلية، فلا نكاد نرى أحدا يتكلم في بيته أو في الشارع أو مع جلسائه وأصدقائه بالعربية الفصحى إلا الشيخ، ولقد سمعته يتكلم مع أولاده بل مع ابنته الصغيرة ذات الحولين أو الثلاثة باللغة الفصحى، وهي تتفاعل معه لتعوّدها عن ذلك.

ومن صفاته اللافته للانتباه أنه كان يتقن فن الاستماع، فتراه منصتا باهتمام لحديث محاوره ولا يقاطعه مهما كان مستوى المتحدث، فإذا انتهى تكلم الشيخ بعد ذلك.

وقد يتحدث بعضهم -أحيانا- في مسائل شرعية أو غيرها يكون للشيخ فيها باع كبير واطلاع واسع، ولو تكلم فيها لأطال وأكثر وشرّق وغرّب، ولكنه لا يقاطع محدثه، ولا يقول له: هذه أعرفها جيدا، بل يظلّ صامتا يستمع بعناية واهتمام، ولا يُشعر محدثه أنه يعرف ذلك الكلام، حتى يتوقف من تلقاء نفسه.

ومِن أول ما يلمحه كل من يلاقي الشيخ هي سكينته وهدوءه، ذلك الهدوء الساكن الذي يحيّر كل من يراه، وتلك السكينة الهادئة التي تملأ عينيْ مشاهده وجليسه ومحدثه، ففي وجهه وجسده هدوء غريب ينمّ عن نفس امتلأت بالإيمان والطمأنينة، وعن قلب حُشي خشوعا ورهبة، وامتلأ يقينا وانشراحا.

ولقد كانت الابتسامة لا تفارق محياه، وهو يعْلم أن البشاشة مصيْدة المودة (الأصفهاني، 1420هـ، 340/1)، خصوصا عندما يلاقي أحد إخوانه، فإنه يبالغ في إظهارها احتفاء به، وكنا نراها في وجهه وهو يخطب إلا إذا كان الموقف موقف غضب أو زجر.

وقد كان يحب وطنه الجزائر حبا خالصا وكل بلاد المسلمين، ويريد أن تكون الجزائر قوية سيّدة في قرارها، وأهم مظاهر القوة أن يكون أبناؤها أقوياء ماديا ومعنويا، ويكونون مستعدين للدفاع عنها يوم أن تصاب بمكروه لا سمح الله.

ومن شدة حبه لوطنه، أنه كان يحب الخدمة الوطنية، ويشجّع على الذهاب إليها. وقد كان الناس ولا يزالون يستثقلون الذهاب لأدائها، ويتوسّلون بكل سبب من أجل الإعفاء منها، ولكن الشيخ كان له رأي مختلف، فقد كنت أراه يشجّع الشباب على الذهاب لأدائها، بل يفرح حين يقول له أحد: "لقد جاءني استدعاء الخدمة الوطنية".

ولقد كان الشيخ يكره الفتن ولا يشجع أيّ طريق يؤدي إليها، وذلك لأنه يعْرف أهمية الأمن والاستقرار وخطر فقدهما على الوطن والدين والنفس والنسل والمال، ولذلك فقد

كان يحذّر من التسرّع وعدم قراءة العواقب. وحين دخلت الجزائر عشرية الدماء والدموع والفوضى، كان الشيخ حزينا جدا على ما آلت إليه البلد، وكان يدعو الله تعالى أن يغيّر حالها إلى خير. (مهري، 2017، الصفحات 63- 112)

4. أثر دعوة الشيخ في المجتمع:

لقد كان الشيخ محمود -كما أسلفت- رجل العلم والدعوة والتربية والبيان... وقد منحه الله تعالى قبولا لدى الناس، بحيث استطاع أن يُحْدث أثرا كبيرا في المنطقة، أدى إلى تغيير جوهري مسّ واقع الناس وسلوكهم وأخلاقهم.

ولم تمض سنوات معدودات على دعوة الشيخ الإصلاحية حتى تبدلت المنطقة من حال إلى حال؛ فتغيرت أخلاق رجالها ونسائها، وانتشر الصلاح بين الرجال والنساء والشباب، واختفت من المجتمع مظاهر فساد كانت بارزة ومنتشرة، وعلى رأسها شرب الخمر وهو أمُّ الخبائث.

ولقد قاد الشيخ وإخوانه حملة إصلاحية كبيرة مسّت بعض مظاهر الفساد، كالخمر، والغناء الفاحش، وسفور النساء... ونجحوا في ذلك نجاحا كبيرا.

ولا زلت أذكر كيف أن الشيخ كان يطوف بالمساجد، وخصوصا قبيل الدخول المدرسي، يدعو الآباء إلى أن يُقنعوا بناتهم بالستر والبعد عن التبرج، وكنا نتبعه من مسجد إلى مسجد، ومن مكان إلى مكان، والشيخ لا يكلّ ولا يملّ من التذكير بذلك، والدعوة إلى إشاعة الفضائل ومحاربة الرذائل...

وكما أقبل الرجال على دعوة الشيخ ورفقائه فقد أقبلت النساء أيضا عليها، فصارت حلقاتهن تُعقد في كل حي، وكان لهنّ ندواتهن في البيوت، وكنّ يستغللن مناسبة الزواج التي تجمع كثيرا من النسوة، فاستطعن أن يوجّهن حفلات النساء في مناسبات الزواج، والتي لم تكن إلا غناء ورقصا، فصار فيها إنشاد ووعظ وتوجيه، وكان الأمر مستغربا في بداية الأمر، ثم ما لبث أن ألِفته النساء، فصارت حفلات الزواج تتم بهذا الشكل.

وأقبل الشباب والطلبة كذلك على الصلاح، فامتلأت بهم المساجد، بعد أن كان لا يعمُرها إلا كبار السنّ، وكان للطلبة نشاطهم في المساجد بالحلقات والمشاركة في مختلف الأنشطة.

وكان المعرض السنوي في كل ثانوية فرصة ممتازة لنشر الثقافة والتعريف بقضايا المسلمين، وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وكان الطلبة والأساتذة يقبلون إقبالا كبيرا على هذه المعارض، وعلى ما ينظّم على هامشها من محاضرات يلقيها دعاة مصلحون على رأسهم الشيخ محمود باي.

والحقيقة أن الشيخ محمود ومن معه من المصلحين تركوا أثرا كبيرا في المنطقة، بحيث تغيرت تغيرا كبيرا، وانتشر الصلاح في كل حيّ، وفي كل شارع، وفي كل بيت. (مهري، 2017، الصفحات 56-57)

5. وفاة الشيخ.. ومنبره الذي شيّعه إلى قبره:

بعد أن أدّى الشيخ دورا رائدا في توعية الناس وتعليمهم، وبعد أن ساهم في تخريج عديد من الخطباء الذين أخذوا عنه منهجه وطريقته في الخطابة، وفي يوم جنازته ضُحى الإثنين 19 جوان 2017م الموافــق لــ 24 رمضان 1438هــ فوجئ الناس بالمنبر الذي كان الشيخ يعتليه خطيبا في مسجد الفتح قائما في المقبرة يشيّع صاحبه مع المشيعين ليقول كلمته الوداعية الصامتة، فكانت كلمةً لها دلالة مؤثرة جدا؛ فمشهد المنبر في الجنازة أبكى المشيّعين الذين طالما جلس كثير منهم في مسجد الفتح يوم الجمعة وهم يستمعون إلى الشيخ يهزّ قلوبهم، ويحرّك أفئدتهم، وينشر فيهم الخير فوق دُرجة، فكان لوجود المنبر في ذلك اليوم مفاجأة للناس الذين لم يشاهدوا منبرا يتبع صاحبه إلى المقبرة إلا منبر الشيخ محمود، كما قال صديقنا الشاعر الدكتور سعد مردّف، الأستاذ بكلية الآداب واللغات بجامعة الشهيد حمّة لخضر بالوادي، في كلمته التي ألقاها قبل إلقاء قصيدته في رثاء الشيخ محمود باي -رحمه الله- بندْوة الوفاء التي أقيمت بمسجد الفتح بالوادي يوم الخميس

24 شوال 1440هـ، الموافق لـ27 جوان 2019م، وقد أطّرها مجموعة من الأساتذة الذين تحدّثوا عن الشيخ، وعمّا قدّمه من علم وخير لأهل وادي سوف؛ يقول الدكتور سعد: "هالني الأمر حين رأيت منبر الشيخ محمود يتبعه إلى المقبرة، فلم أرَ منبرا يتْبع صاحبه إلى المقبرة إلا منبر الشيخ محمود".(مهري، 2020، صفحة 35)

وقد رثى الشاعر سعد مردف الشيخ بقصيدة مطلعها:

هلْ يدركُ الموتُ ما خَطَّتْ أياديهِ؟ * أم يدركُ الموتُ مَا غالت عواديه؟

وقال فيها متحدثا عن منبر الشيخ الذي اتّبعه يوم جنازته إلى قبره:

لله منبـــرهُ، مـــا زالَ يَتبعـــهُ * حتى تداعَـــى علـــى قبرٍ ليرثيهِ

قد كان جَنّتَـــهُ بل كانَ حَومتَهُ * كم فوقَ أعـــوادهِ سَـــارتْ مغازيـــهِ

كـــم في مدارجِـــه لله مِنْ صلـــةٍ * وفيه للمصطفـــى أسمـــى مباديهِ

كـــم ذبَّ عـــن سُنّةٍ أحيا معانيَهـــا * وردَّ من بدعـــةٍ في حسْـــنِ تنبيـــهِ

وكم له في ذُرى الأخلاق من سبَبٍ * أبقَى على الدهْرِ لا تعفُو حواشيهِ

(مردف، 2021، صفحة 117)

6. خاتمة:

لقد سعدتْ منطقة وادي سوف منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي بأحد أبنائها البررة وشيوخها الكرام، وهو الشيخ محمود باي -رحمه الله- العالم الزاهد، والفقيه الرباني، والمربي الحكيم، والمصلح الناجح، والخطيب المصقع الذي أحيا النفوس بمواعظه، وزكّى القلوب بنصائحه، وحارب البدع والآفات الاجتماعية بعلمه وحكمته، وربّى الشباب الصالح بأبوّته وقدوته، وغيّر من سلوك الناس وطبائعهم بإخلاصه وقوة تأثيره، وعلّم الخطباء والمتكلمين بما وضعه من نموذج خطابي لم يكن للمنطقة عهد به، فكان بحق مدرسة متكاملة في العلم والأخلاق والإصلاح.

فكم عرفته المنابر خطيبا مفوّها، وكم عرفته مجالس الوعظ والتوجيه، ومجالس الصلح بين الناس، وكم من فتاوى أفتاها، وعطاءات أعطاها، وحوائج للناس سعى فيها وقضاها، ومشكلات حل عويصها وسوّاها.

فكان كالغيث أينما حل نفع، وكالبحر يعطيك من خيراته وجوده بلا مقابل، فرحمه الله رحمة واسعة، ورفع مقامه في عليين.

وكما عاش هذا الرجل عالما ومجتهدا وعاملا ومصلحا، فإن هناك في هذا الوطن رجالا غيره من العلماء الصالحين الذين قدّموا الكثير، وأعطوا وما بخلوا، وأصلحوا كثيرا مما أفسد الناس، ولهؤلاء في أعناقنا واجب التعريف بهم وبما قدموه من جهود نافعة في التربية والإصلاح حتى نضع أمام الناس قدوات صالحة يجدون فيها مواضع التأسّي والاقتداء.

5. قائمة المراجع:

الأصفهاني، الراغب. (1420هـ). *محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*. ط1. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.

الأندلسي، ابن عبد ربه. (1404هـ). *العقد الفريد*. ط1. دار الكتب العلمية.

باي، حذيفة. (2021). *والدي الشيخ الدكتور محمود باي كما عرفته*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته (صفحة ص7). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

البخاري محمد بن إسماعيل. (1987م). *صحيح البخاري*. ط3. دار ابن كثير.

بوغزالة، محمد رشيد. (2021). *أستاذي الشيخ محمود باي كما عرفته*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته (الصفحات 63- 66). سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

الجوزية، ابن القيم. (1973م). *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين*. ط2. دار الكتاب العربي.

رحماني، إبراهيم. (2021). *صفحات من سيرة الشيخ الدكتور محمود باي*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (19-34). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

ريمي، إدريس. (2021). *الشيخ الدكتور محمود باي سيرة علمية وتعليمية ودعوية*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (97- 116). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

عبد اللاوي، يوسف. (2021). *هذه شهادتي في حق معلم الأجيال الشيخ محمود باي رحمه الله*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (35- 38). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

غربي، عمار. (2021). *الشيخ محمود باي -عليه رحمة الله- كما عشت معه*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (93- 96). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

فلوسي، مسعود. (2021). *الشيخ الدكتور محمود باي رحمه الله كما عرفته*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (13- 17). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

مردف، سعد. (2021). *مرثية إمام الخطباء الشيخ محمود باي حمه الله*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (117- 119). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

مهري، نور الدين. (2017). *الشيخ الدكتور محمود باي كما عرفته*. ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

مهري، نور الدين. (2020). *تجربتي مع المنبر في ثلاثين سنة*. ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.

مهري، نور الدين. (2021). *الشيخ الدكتور محمود باي فارس المنابر وباعث فن الخطابة الدينية في منطقة وادي سوف*. إبراهيم، رحماني. الشيخ الدكتور محمود باي في ذكرى وفاته. (49- 62). ط1. سامي للطباعة والنشر والتوزيع.